

عمارة السجون: ما بين آلة الإصلاح ومصنع الانحراف بسمه عبدالله عريقات

المقدمة:

كما يقول الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكوه في كتابه "القوة/المعرفة" - وهو أهم باحث منذ القرن العشرين في العديد من الأمور المثيرة للجدل مثل القوة والسيطرة والسياسة والاقتصاد والجنون والحضارة وخاصة العقوبات والسجون - إنه من المستحيل أن نستطيع أن نقوم بدراسة عن السجون بشكل منفرد، لأنه لا يمكن عزلها عن كل الأمور المتعلقة بها والعوامل المؤثرة بها مثل كيفية تأديتها وظائفها، استراتيجياتها، وكل العناصر التي تتكون منها والتي لا تتعلق بشخص أو مكان معين. لذلك عند القيام بدراسة في عمارة السجون، لا بد لنا من أن نقوم بالبحث عن هذه العوامل وجعلها جزءاً رئيسياً من الدراسة. لكن السبب الذي يدعونا للاستعانة بفوكوه في هذا الموضوع هو نظريته المتعمقة في مفهوم العقاب والحبس والتي حاولت الربط بين جميع العوامل التي ذكرناها سابقاً والعمارة بنظرة شمولية متكاملة. ومع أننا قد نختلف معه في الكثير من أفكاره ونظريته، إلا أننا لا بد من أن نقدر ونحترم أبحاثه التي قام بها في هذا الموضوع والتي كان لها أثر كبير في تغيير نظرة المجتمع لموضوع الجريمة والعقاب في جميع أنحاء العالم، وخاصة كتبه "المراقبة والمعاقبة" و "الجنون والحضارات" والتي كان لها أثر كبير في هذه الدراسة.

ولكي نجعل هذه الدراسة مرتبطة بشكل مباشر مع الواقع، ولنتمكن من الحصول على أفضل نظرة شمولية ضمن محدودية الوقت والمساحة المتاحة لنا هنا، فكان لا بد من الاستعانة بتجارب بعض الأشخاص الذين عاشوا تجربة السجن سواء كمساجين أو سجانين أو أطباء نفسيين بالإضافة إلى مهندسين معماريين قاموا بتصميم السجون. لكن قبل ذلك، سنطرق لبعض الأمور النظرية والفلسفية في مفهوم السجن والعقاب.

الأنظمة العقابية:

تطور النظام العقابي بتطور الحضارات. فحسب دراسة روش وكيركهيمير، فإن الأنظمة العقابية تتبع الأنظمة الاقتصادية الإنتاجية المتبعة في ذلك الوقت. فنظام العبودية نشأ في الحضارات التي اعتمدت على القوى العاملة الكثيرة وقلة الوعي لقيمة الإنسان، أما نظام العقاب الجسدي فنشأ في المجتمعات التي اعتمدت على العمل الجسدي وقلة الوعي الفكري، حيث كان الجسد هو الشيء الوحيد الذي يمكن الوصول إليه والتأثير عليه، أما نظام السجون والأشغال داخل السجن فنشأ في المجتمعات التجارية الإنتاجية وذلك للحاجة إلى البضائع المصنعة الرخيصة، أما النظام الإصلاحية، وهو ما تبحث عنه مجتمعاتنا الحالية، فنشأ نتيجة الوعي النفسي والرغبة في التعليم والإصلاح بالإضافة إلى علوم القوة والسيطرة عن طريق التأثير النفسي وليس الجسدي.

نشأت دور الحبس في أوروبا في القرن السابع عشر، حيث كانت تهدف ليس لحبس المجرمين فقط بل أيضاً المجانين والفقراء والعاطلين عن العمل. حيث كانت نظرة المجتمع لهؤلاء الناس على أنهم يشكلون مصدر للشر والفساد، فلا بد من حبسهم وإبعادهم عن المجتمع المستقر بالإضافة إلى إشغالهم بأعمال إنتاج تنفيذ المجتمع والاقتصاد. وسرعان ما أصبح المساجين يشكلون قوة إنتاجية كبرى بأجور قليلة. ثم في القرن الثامن عشر تقريباً تطورت فكرة السجون كعقاب للمجرمين. فكان الانتقال من مفهوم مقابلة الجريمة بعقوبة محددة تفرض على المجرم من قبل سلطة خارجية إلى مفهوم المراقبة وإعادة التأهيل النابعة من ضمن المجتمع من خلال العزل. يرى فوكوه أن هذه اللحظة الانتقالية تزامنت مع تغير إدراك السلطات أن ممارسة القوة من ضمن المجتمع من خلال المراقبة الدائمة أكثر فعالية وفائدة من فرضها من الخارج بالعنف الجسدي أو التهريب.

لكن السجون أثبتت فشلها كمؤسسات بهذا المفهوم منذ بدايتها. فبلحظة دخول الفرد إلى السجن يتم تجريده من العديد من امتيازاته وحقوقه الاجتماعية مما يؤدي إلى مواجهته الرفض من قبل المجتمع الخارجي بعد خروجه من السجن فلا يجد ملاذاً من أن يعود إلى الجريمة مرة أخرى. فمن العشرينيات من القرن التاسع عشر، أصبح من الواضح أن السجون لم تستطع إصلاح المجرمين بل عملت بشكل غير مباشر على تصنيع الانحراف.

مفهوم الانحراف:

يتميز فوكوه بين المنحرف والمجرم بأنه لا تقتصر مسؤولية المنحرف عن الجريمة من ناحية إرادته ونواياه الواعية، بل أيضاً يرتبط بفعلة بنسيج معقد من الغرائز والدوافع والميول الشخصية. فقد يقوم مجرم بارتكاب

جريمة بسبب ظروف معينة مؤقتة تدفعه لذلك، لكن المنحرف يقوم بالجريمة كجزء من حياته وشخصه بحيث تدخل الميول الإجرامية في تركيبته. قد يعود السبب في نشوء المنحرفين إلى عدة أسباب تتعلق بتاريخهم وحياتهم السابقة للجريمة منذ الصغر وظروفهم الاجتماعية والاقتصادية. لكن تكمن المشكلة الأكبر في السجون أنها تعمل على تجميع المجرمين والمنحرفين معاً في مكان واحد وظروف موحدة تؤدي إلى تحويلهم جميعاً لمنحرفين محترفين بدل أن تقوم بإصلاحهم. ويمكن إعادة أسباب مساهمة نظام السجون في توليد المنحرفين الأسباب التالية:

- 1- نوع الإقامة المفروض على المساجين في زنازات حيث يمكنهم بلا عمل أو فائدة
- 2- فرض محددات على تحركات السجناء وأفعالهم يولد إحساساً بالظلم لدى السجنين مما يؤثر على سماته الشخصية بشكل دائم ويجعلها صعبة التهذيب. فعندما يجد السجنين نفسه معرض للمعاناة التي القانون نفسه ينص على عكسها، يجد نفسه غاضباً على كل ما حوله ويفقد إحساسه بالذنب بل يلوم العدالة نفسها على ما هو فيه.
- 3- نجد في الكثير من السجون أن المسؤولين والحراس يستخدمون وسائل فاسدة في السيطرة على المساجين وخاصة تشجيع التجسس بين المساجين على بعضهم البعض مما يعزز فكرة الفساد والاستغلال كوسيلة رئيسية للمراقبة.
- 4- إخضاع المساجين للأشغال الشاقة والتي غالباً ما تنقص الفائدة العملية والفكرية.
- 5- يعمل وضع السجناء معاً على خلق تنظيمات إجرامية فيما بينهم حيث تتوزع الوظائف والمراكز فيما بينهم حسب القوة والقدرة
- 6- يعمل السجن أيضاً على توليد المنحرفين خارج السجن من أفراد عائلة المسجون التي غالباً ما تعاني من الفقر والحقن على المجتمع والسلطات وقد تكون هذه من أخطر النتائج إذا ما لم تتم معالجتها.

ومع وجود كل هذه الآثار السلبية للسجون، إلا أنه من الصعب الاستغناء عنها بشكل كامل وذلك لعدم وجود بدائل كافية وفعالة. للسجن وظيفة مزدوجة تعطيه فعاليته وتساهم في صموده خلال الزمن أمام جميع البدائل المطروحة. تكمن الأولى في اعتماده على مفهوم الحرمان من الحرية كالوسيلة العقابية الأساسية. بالمقارنة مع الوسائل العقابية الأخرى مثل التعذيب الجسدي أو الغرامات المادية، يرى فوكوه أن الحرمان من الحرية يؤثر في جميع الأفراد مع اختلاف ظروفهم وشخصهم وبيئاتهم بنفس الدرجة وبنفس العمق. حيث تشكل الحرمان من الحرية الوسيلة العالمية للتأثير في النفس البشرية. ويمكن التحكم بكمية العقاب من خلال تحديد المدة بحيث تتناسب مع الجريمة. أما الوظيفة الثانية فهي قدرة السجن على الفرض على المجرم نوع معين من الحياة لمدة من الزمن مما يؤدي إلى تغييره بشكل دائم. فبدل أن يكون هذا التغيير باتجاه الانحراف، يجب أن يكون باتجاه العلاج والتعلم والتدريب على أساليب الحياة الصحيحة والمفيدة والتي تؤدي إلى إعادة تأهيله. ولتحقيق ذلك، يتوجب على السجن كمؤسسة إصلاحية أن تحقق ليس فقط في الجريمة بل في الأسباب التي دفعت إلى تكوين شخص المجرم وميوله الانحرافية من ناحية سيكولوجية نفسية واجتماعية وأيضاً من ناحية تربية وإنشاء. وقد تكون أهم الخطوات بهذا الاتجاه هي المراقبة.

المراقبة:

يشكل السجن المكان الأمثل لدراسة المنحرف وتطوير أساليب إصلاحه من خلال المراقبة والتي تتم عن طريق الرقابة الدائمة لأفعاله والتعرف العميق إلى أنماط تصرفاته وأفكاره والتغير الحاصل خلال فترة إقامته. ومن هذا المفهوم للمراقبة كأسلوب إصلاحي نتجت نظرية panopticism التي طورها الفيلسوف ميشيل فوكوه وقام بتطبيقها المعماري جيرمي بنثام في تصميمه لنموذج السجن الرقابي.

يتكون سجن بنثام من برج مركزي تلتف حوله الزنازات بشكل نصف دائري. يشكل البرج مركز الرقابة الرئيسي والذي يمكن منه رؤية كل الزنازات والحراس دون أن يستطيع أي منهم رؤية الآخر. يهدف التصميم إلى وضع جميع من في السجن تحت المراقبة الدائمة مما يجبرهم على التصرف بشكل صحيح طوال الوقت لمعرفة أنهم يمكن رؤيتهم بأي وقت. وبنفس الوقت، إن عدم قدرتهم على رؤية بعضهم البعض تلغي قوة الجماعة والفساد الذي يحصل من خلال تفاعلهم مع بعض مما يجعلهم يشعرون بالانفراد طوال الوقت دون أن يؤدي ذلك لشعورهم بالانعزال وذلك لقربهم الجسدي الناتج عن التصميم. تنص النظرية أيضاً على ضرورة أن يستطيع السجنين رؤية البرج في كل الأوقات دون أن يستطيع رؤية العين المراقبة مما يعزز من قوة المراقبة وسلطتها. يقوم التصميم بتوظيف المعمار للسيطرة على عقول وتصرفات الأشخاص. فحسب فوكوه، تكمن

فعالية النموذج في القدرة على الجمع ما بين المراقبة والملاحظة، الحراسة والمعرفة، الفرد والجماعة، الانعزال والشفافية.

في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، أصبح مفهوم panopticism يشكل المبدأ الرئيسي المتبع من قبل معظم مشاريع السجون في تلك الفترة. اعتبرت هذه الفكرة أفضل طريقة لإثبات أنه يمكن أن يكون للمعمار دور في الضبط والمراقبة، وجعل المعمار شفافاً أمام ممارسة القوة والسلطة، فأصبح من الإمكان استبدال العنف والقوة بالمراقبة وكل ذلك بالفضل إلى التصميم المعماري التابع لأحدث النظريات الإصلاحية. وهنا يشدد فوكوه على أهمية التواصل بين المعماري والسلطات لتحديد موقع السجن وذلك حسب درجة التغيير المرجوة من وجوده في السجن من خلال دراسة وضعه وتقييمه كما تم ذكره سابقاً. فكانت المهمة هي تصنيع آلة السجن المكونة من وحدات الزنزانات وتعمل بقوة المراقبة. هذا الآلة تجعل من الممكن إنشاء نظام من المحاسبة الأخلاقية من خلال دراسة تصرفات السجناء والحراس والتعامل معهم بشكل منفرد كل حسب حالته واحتياجاته.

وليتحقق الهدف من الحبس وهو الإصلاح، طور فوكوه نظرية التدريب الصحيح والتي تتكون من العناصر التالية:

- 1- المراقبة المتسلسلة : ويكمن ذلك في التنظيم المعماري المبني على التخطيط الهندسي للمكان، حيث يهدف المعمار لتمكين السيطرة الداخلية من خلال رؤية كل من فيه. فهو معمار يعمل على تغيير الأفراد من خلال إيصال قدرة الرقابة والسلطة إليهم لتمكين التعرف عليهم وفهمهم. فأداة الضبط المثالية تجعل من الممكن رؤية كل شيء بشكل كامل من نظرة واحدة وجعل كل النظرات موجهة إليها. تمكن المراقبة المستمرة والمتسلسلة قوة الضبط أن تصبح نظاماً متكاملماً نابع من داخل الفرد والمجتمع والاقتصاد التي يقع فيه فيصبح النظام الإصلاحي كالألة. فيمكن تجنب العنف وفرض القوة من خلال استخدام قوانين البصريات والرؤية من خلال التلاعب بالفراغات والخطوط والشاشات والجسور والأعمدة والزوايا. فيمكننا هنا رؤية الدور الكبير الذي يلعبه المعمار في تطبيق النظرية الإصلاحية.
- 2- الحكم الطبيعي: ويقصد به وضع أحكام وقوانين للتصرف من خلال إعطائها صفة التصرف الطبيعي وجعل كل ما يخالفها غير طبيعي. يعتمد هذا الأسلوب على رغبة الإنسان بأن يكون طبيعياً وبذلك تقرر القوانين من خلال الأفراد والمجتمع وليس من السلطة بشكل مباشر.
- 3- الامتحان: وهو ما يجمع بين الحكم والمراقبة ويجعل الفرد يسعى للنجاح ويمكن السلطة من مراقبة الأداء وتقييمه.

تهدف هذه النظرية إلى تفكيك القوة وتحويلها إلى قوى كامنة في المجتمع تحركه من الداخل مما يؤدي إلى إحداث تغيير حقيقي في المجتمع. ويمكننا أن نرى بوضوح أهمية المعماري والمعمار في هذه العملية الإصلاحية. لكن دور المعماري لا يقتصر فقط على تمكين الرؤية والمراقبة وتخطيط الفراغات. فالتكنولوجيا الحديثة من كاميرات المراقبة وأجهزة الرادار والإحساس عن بعد جعلت حتى أعقد المباني وأكثرها غموضاً مكتشوفة أمام أنظمة الحراسة وكل ذلك من غرفة مراقبة واحدة قد تكون بعيدة عن الموقع كلياً. فهنا يجب علينا التفكير في دور المعماري في العملية الإصلاحية والتدريب الصحيح المؤدي إلى ذلك. ولهذا سنستعرض تجربة مثيرة للاهتمام للمعمارية الأردنية عادة عمرو.

في الثمانينات من القرن الماضي، وفي بداية مشوار عادة عمرو المعماري، طلب منها أن تعمل على تصميم سجن بالتعاون مع المهندس المعماري راسم بدران. إيماناً منها بضرورة إلمام المعماري بوظيفة المبني التي يتوجب عليه تصميمه وبسبب عدم معرفتها الكافية بموضوع السجون، قررت المعمارية أن تقوم بدراسة مكثفة للسجون والنظام الإصلاحي من ناحية نظرية وعملية. فقامت بدراسة العديد من الكتب المتخصصة بموضوع السجون من النواحي القانونية والعلمية وخاصة النفسية. ثم أخذت عمرو قراراً جريئاً بأن تمضي بعض الوقت داخل أحد السجون كواحدة من المساجين لكي تستطيع المرور بالتجربة بشكل مباشر. وصفت عمرو تجربتها من ناحيتين جسدية ونفسية. فمن الناحية الجسدية، فالمحددات الأمنية والفراغية للسجن تؤدي إلى نقص في الضوء الطبيعي داخل الفراغات بالإضافة إلى عدم توفر مساحات خارجية كافية للتحرك والتنفس وممارسة النشاطات الأساسية التي يحتاجها الإنسان لكي يعيش حياة صحية. كما أن الإكتظاظ التي تعاني منه السجون غالباً يؤدي إلى خلق بيئة غير صحية للمساجين والعاملين في السجن. أما النواحي النفسية فكان لها التأثير الأكبر في تجربة عمرو. فذكرت العديد من الأمور التي تشكل معاً شبكة معقدة تعمل على جعل الحياة داخل السجن غاية في الصعوبة. من هذه الأمور:

- 1- وضع المساجين معاً بغض النظر عن نوع الجريمة المرتكبة مما يؤدي إلى تأثيرهم سلباً على بعضهم البعض
- 2- الفراغ الذي يعاني منه المساجين لعدم قيامهم بأي عمل منتج يؤدي إلى الخمول والفراغ النفسي وغالباً ما يعقد الحالة النفسية
- 3- التدهور الأخلاقي التي يمر به معظم المساجين فيتحولون إلى منحرفين بسبب شعورهم بالظلم والحقد
- 4- المشاكل التي تحدث بين المساجين بسبب العلاقات التي يحكمها الأقوى ويؤدي إلى استضعاف الآخرين
- 5- إن الإنعزال الذي يعيشه المساجين عن العالم الخارجي يحطم معنوياتهم ويفصلهم عن العالم الطبيعي

بعد أن خرجت عمرو من السجن عانت لفترة من الزمن من الآثار النفسية لتجربتها إلى أن استطاعت العودة إلى مشروعها الأساسي للسجن. فوضعت العديد من الأفكار التي تساهم في خلق بيئة أفضل من ناحية معمارية. لكنها سرعان ما أدركت أنه مهما كانت البيئة المعمارية جيدة فإنها لن تستطيع التحسين إلا إذا صاحبها تغيير في النظام ليصبح نظاماً إصلاحياً متكاملأ يعتمد على العلاج والإصلاح وإعادة التأهيل بدل من المعاقبة. لكن الوقت الطويل الذي يحتاجه تغيير النظام والتعقيد الذي تعاني منه أي عملية تغيير جذرية دفع عمرو إلى الإنسحاب من المشروع ورفضها تصميم سجن بالمفهوم التقليدي لكي لا تكون جزءاً من النظام الذي تناقض مع ما تؤمن به من ضرورة التغيير.

ليس الهدف من استعراض هذه التجربة تقييم السجون أو تجربة الإقامة في السجن، إنما الهدف هو إبراز الدور الشخصي للمعماري في تصميم السجون بعد مروره بالتجربة. فتعتبر عمرو تجربتها في السجن كنقطة تحول في حياتها الشخصية والمهنية أدت إلى إدراكها أن دور التصميم المعماري مرتبط تماماً بالبيئة التنفيذية والإدارة. فمهما حاول المعماري تصميم بيئة إصلاحية، فيجب أن يتبع ذلك نظام إداري إصلاحية يعمل على التأهيل والتدريب. فكما رأينا في نظرية فوكوه، لا بد من أي نظرية إصلاحية أن تتكون من شقين معماري تخطيطي وإداري نفسي يعمل على العلاج والتأهيل.

الخلاصة:

إن العلاقة بين مفهوم السجن والفراغ المعماري لا تقتصر فقط على كون المعمار القالب الذي تتشكل فيه تجربة السجن حيث تحوي كل ذكرياته وأفكاره، إنما يوجد علاقة مباشرة بين جسد الإنسان ونظام السجن بحيث تؤثر بشكل دائم في تكوينه الجسدي والنفسي. فحسب قول فوكوه، ففي اللحظة التاريخية التي اختفى فيها الجسد المعذب والمعاقب باختفاء العقوبات الجسدية، ظهر الجسد المفصوم للسجين، والذي انقسمت فيه النفس إلى جسد وروح للمحبوس. وبما أن الروح تتشكل مع الظروف التي يمر بها الإنسان في حياته، فهي خليط من تجاربه السابقة وحياته الحاضرة وآماله المستقبلية، فالمدة التي يقضيها أي إنسان في السجن تشكل شخصه بشكل دائم وتغير مسار حياته إلى الأبد. فلا بد من أن يتعاون النظام والمجتمع والمعمار في تشكيل تلك التجربة وجعل التغيير للأفضل. فالسجين حتى بعد خروجه من السجن تبقى روحه سجينة الجسد الذي مر بالتجربة ويبقى سجين العار والألم الذي عاشه في الحبس وحرمان الحرية. أما إذا كان السجن بيئة إصلاحية، فإن التجربة تسكن في الجسد وتقود الروح نحو الفضيلة والإصلاح. تحلم عادة عمرو بمركز إصلاح على جزيرة نائية، فيها مجتمع متكامل من الأشخاص الذين ارتكبوا أخطاءً في حياتهم يبعثون للجزيرة ليتعلموا كيفية العيش المنتج ويتعلمون الإنخراط في المجتمع العامل. يصاحب العمل علاج نفسي مكثف للبحث عن أسباب الانحراف وبرنامج خاص لإعادة زرع المؤهلين في المجتمع الطبيعي بعد تخرجهم. لكن مهما حلمنا تبقى الجزيرة سجن بسبب انعزالها وعدم القدرة على مغادرتها. فيبقى السؤال، هل يمكننا خلق سجن ليس بسجن؟ هل يمكننا الإصلاح دون حبس؟ وهل يمكن للحبس مهما جملناه أن يقوم بالإصلاح؟ مهما كانت الأجوبة، فلا بد للمعماري قبل التفكير بتصميم جدران السجن أن يفكر بكل هذه الأمور وأن يأخذ على عاتقه التعمق بما وراء هذه الجدران ونوع الحياة التي يساعد على صنعها.